صورة المجتمع كما تنعكس في رواية "في قافلة الزمان" لجودة السحار

عاشق حسين مير*

يعتبر عبد الحميد جودة السحار (١٩١٣-١٩٧٤م) من كبار كتّاب الرواية المصرية الذين ظهروا في القرن العشرين وتلألأت أسمائهم بمجهوداتهم القيمة ومساهماتهم النيرة في مجال الرواية والقصة، وإنّ لجودة السحار دوي في العالم العربي آنذاك بفكرته الإسلامية العطرة وبراعته الفائقة في القصة والرواية بحيث أنّه ألف عديدا من الروايات وعشرات من مجموعة الأقاصيص الدينية، مقدّما فيها الجوانب الدينية والأخلاقية والاجتماعية والإصلاحية وغير ذلك.

وأما روايته "في قافلة الزمان" فهي رواية اجتماعية التي أصدرها عبد الحميد جودة السحار في عام ١٩٤٧م،[١] يتناول فيها أحوال البيئة المصرية وعاداتها وما جرى فيها من التفاؤلات والخرافات وأحاديث الناس ومعتقداتهم إضافة إلى تقاليد المرموقة المتبعة الأسرة ذات الشرف والمكانة. إضافة إلى ذلك وجدنا من خلال هذه الرواية تطور النظرية واختلاف السلوك بين نظرية الأجيال الثلاثة من ناحية الفكر والنظر. وجدنا أنهم يختلفون في العادات والمأكل والمشرب ولبس الملابس واختلاط النساء مع الرجال والشبان في دور العلم والمراقص وغناء الموسيقى وغير ذلك. هكذا يصف الكاتب فيها عادات أهالي المصر وأخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم وخرفاتهم بطابع جاذب رائع من ١٩٠٠م

---

* باحث الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

إلى ١٩٣٧م هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى يعالج فيها معاناة أسرة مصرية ويتابع ما طرأ عليها من تغير في الفكر والسلوك من خلال أجيال ثلاثة عاشت في تواصل زمني امتد من أواخر القرن الماضي إلى ما يقرب من الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) معتمدا على نماذج متمايزة من الشخصيات تتبلور حركتها من منطلقات عقائدية مختلفة وأنماط سلوكية متباينة وهي رغم تباينها واختلاف حركتها تسجل بوعي ملامح الحياة الاجتماعية في فترة من أخصب فترات التاريخ الحديث عطاء وحيوية.[٢]

وفي أثناء مطالعة هذه الرواية يتضح لنا أنها تشتمل على الأجيال الثلاثة التي سمعها السحار عن جدته وجدّ أبيه وأعمام أبيه على مر السنين. ولا نبالغ عندما نقول إنّها قصة قريبة من أسرته وبعض من تجاربه الذاتية كما يُقرّ السحار نفسه عن أسباب تأليفها فيقول:

> "عزمت على أن أستمد قصصي كلها من واقع الحياة، أن أبحث عن أناس أعيش بينهم، وأستقرئ حياتهم ثم أنسق المجرى الذي ستندفع فيه الشخصيات والأحداث حتى تبلغ القصة نهايتها الطبيعية. أن أقرب شيء إلى الانسان هو نفسه وأسرته، والبيئة التي يعيش فيها، لذلك كان أول ما فكرت فيه أن أكتب قصة أسرتي، أو قصة قريبة من أسرتي، وأن أستعين بتجاربي وبما سمعته وما حفظته على مر السنين".[٣]

يبدأ الكاتب هذه القصة مرتبطا بسلسلة الحوادث البسيطة التي تتفاعل مع عديد من الشخصيات، وينطلق بها مصورا لمجتمع المصري وتتطور

الشخصيات المتأثرة بالمجتمع لتتكوّن حبكة القصة، ويختار الشخصيات من أسرته ثم يبدأ الرواية بـ "الحاجّ أسعد" الذي كان يرأس العائلة من جيل الأول ويعيش في حيّ "الحسينية" مع أبناءه الثلاث وزوجاتهم وحفدتهم كما كان متدينا وحريصا على الصلاة في الليلة والنهار خمس مرات وبالإضافة إلى ذلك أنّه يتنفر بدعات العصر الحديث والضلالات والخرافات التي يقرأ في كتاب المفتوح في حجرته ويحزن أشد الحزن عند ما يقرأ فيه خروج المرأة من البيت سافرة الوجه وكاشفة الصدر عارية الرأس وعارية الرجل في المستقبل ويرى أنّ ذلك من علامات الساعة. حتى أنكرت زكية – حفيدة الحاج أسعد – يوما عندما رأته مطاطئا بصره، ومسبلا جفنيه، والدمع يسح من عينيه، فينحدر على خديه ويبل لحيته، فاقتربت منه، وقالت:

"- أتبكي يا جدي؟!

فرفع الحاج أسعد رأسه، ونظر إليها من خلال دموعه، ولم ينبس كلمة، فعادت تسأله:

- وما يبكيك؟

فأشار إلى الكتاب المفتوح في حجره، فقالت:

- وما به؟

فقال في صوت خفيض أسيف:

- سيأتي أوان تخرج فيه النساء عرايا، سافرات الوجوه، كاشفات الصدور.

فأطرقت زكية قليلا، وقد تضرح وجهها بحمرة الخجل، وسرح خيالها ولكنها عجزت عن أن تتصور نساء سافرات الوجوه، كاشفات الصدور، يخطرن بين الرجال مرفوعات الرؤوس، إن ما يقصه جدها يبدو لها عجبا. إنه مجرد

أوهام وخيالات، فمن ذا التي تقبل هذا العار! وأي الرجال هؤلاء الذين يسمحون لبناتهم وأخواتهم وزوجاتهم أن يخرجن حاسرات سافرات فهمست:

- هذا لا يصدق.

فقال الحاج أسعد في يقين

- وسيتكلم الحديد،

فغمغمت زكية في دهشة:

- الحديد!

فهز رأسه أسفا.

فنظرت زكية إلى قضبان الشاك الحديدية، وقصر خيالها عن تصور هذه القضبان تتحدث، فقالت في إنكار:

- هذا محال. (أن يتكلم الحديد)

فهمس (جدها) في حسرة:

- إن ذلك من علامات الساعة وسيقع كل ذلك."[٤]

ثم يعرض علينا السحار النماذج المتعددة وهي خروج المرأة من الأقدار الدينية في الأجيال المتقدمة التي جاءت بعد ذرية الحاج أسعد، واختلافها من العادات والتقاليد القديمة المتوارثة، كما أخذت الحياة تتأثر بدعوة المرأة إلى التحرر.

كما يوجّهنا الكاتب خلال هذه الرواية إلى قصة زوجة محمد وهي حينما جاء محمد بمؤذن الجامع ليكبّر في أذن ست زكية، يُشير إلى زوجته أن تخلي الحجرة وتذهب بعيدا فلا يليق بها أن تظهر هكذا أمام الرجال. كما يصور الكاتب هذا المنظر قائلا:

" وجاء محمد يتبعه مؤذن الجامع القريب من دكانه، فهرع النسوة إلى حجرة قريبة وأغلقن بابها عليهن، ولكنهن تركن فرجة ينظرن منها ما يجرى في حجرة زكية، ودخل محمد واجما فرأى زوجه بجوار ابنته الممددة كلوح من الخشب، فسألها في اضطراب:

- ما لها؟

فقالت نفيسة والدموع تطفر من عينيها:

- لم يعد جسمها خالصا، لمسها إخواننا، ومن ساعتين وهي على هذه الحال.

- فقال محمد وقد أطرق في حزن:

- وما العمل؟

- دع المؤذن يكبر في أذنيها فتفر العفاريت إذا سمعت الأذان.

ونظر محمد إلى نفيسة كأنما يقول لها: وأنت هل تظهرين هكذا أمام الرجل، وفهمت نظرته، فانسحبت إلى الغرفة الأخرى، وأراد محمد عينيه في المكان، حتى إذا وقعنا على ملاءة كبيرة على أحد المقاعد، تناولها وستر بها جسد ابنته، ثم أذن للمؤذن بالدخول". [٥]

ثم يحكى لنا الكاتب كيف ظلّت المرأة في نظر الجيل الثاني ظلا للرجال وتابعا لهم، ولا تحس حرجا أن تقول لزوجها " السيد" حتى جاء الجيل الثالث وتحقق ما كان يخشاه الحاج أسعد، فنرى كيف تخرج المرأة سافرة عاهرة، ترتاد الشواطئ كاسية وعارية مختلطاً بالرجال في الشوارع وبالشباب في حلقات العلم والعمل وهكذا خلعت حياءها وتمادت في غيها. كما يصور لنا السحار هذا المنظر بصورة دقيقة حيث يقول:

"ونهض(مصطفى) من نومه في الصباح الباكر وارتدى ثيابه ودخل غرفة مكتبه، ووقف في نافذتها يرقب شرفتها (كوثر). وانقضى بعض الوقت قبل أن تظهر في الشرفة وتشير له بالنزول. وقابلها عند نهاية الشارع، كانت في ثوب أبيض بسيط يحاكى الأثواب التي تخصصها فتيات المدارس للألعاب الرياضية، وكانت تحمل في يد فنوغرافا على هيئة صندوق أسود صغير، وتحت إبطها الآخر صندوق آخر به بعض الأسطوانات، فمد يده وحمل عنها الفنوغراف."[٦]

فمصطفى ابن الجيل الثالث يشهد كل ذلك ويحب بكوثر حبّا شديدا. حتى يريد أن يتزوجها. لأنّها الفتاة المثقفة العصرية الحديثة، والتي تفهم أن الحياة ليست مأكلا ومشربا ونوما فقط. لذلك ترك رغبة أهله في تزويجه من "فتحية" الفتاة التقليدية المحافظ والتي لم تساوي كوثر في العلم والثقافة. وإن كانت هي تتفوق عليها في الحسن والجمال، وتظل هذه الحيرة ضاربة أعماقه، مرّة يرى كوثر على الشاطئ وهي عارية، تسمع الأغاني الفاحشة، وفي أثناء ذلك يتقدم إليها شاب أجنبي وسارت معه، حتى يهبطا إلى حلقة، ويضع ذراعيه حول خصرها، وراحا يرقصان في غبطة وسرور فتثير دماء مصطفى في عروقه بعد رؤية هذا المنظر. وأحس الحنق الشديد حتى ضاقت نفسه، وانقبض قلبه، فقام، وانصرف إلى بيته والغضب يظهر من وجهه فظهر عليه أنه روح العصر والمدنية.

هكذا لاحظنا من خلال هذه الرواية كيف تحولت العادات والأطوار القديمة في الأجيال الثلاثة بغير الضوضاء والثورات وقد أحسن عند ما كتب

سيد قطب عن قيم هذه الرواية قائلا:

"هذه هي الأجيال الثلاثة الأخيرة في مصر، فقد تمت فيها هذه الأعاجيب، يعرضها المؤلف عرضا صادقا سريعا، وما كنا نحس المفارقة بين البدء والنهاية، إن هذه القافلة تسير في طريقها المرسوم، تسير خطوة خطوة، وكل مرحلة تأتي بعد مرحلة السابقة بلا ضجة ولا ضجيج، تحدث السحار فيها عن أحداث قد مرت في حياة كل قارئ بسبب الأسرة الكبيرة وإجماع الأهل والأحباب، ولم يلفت زمام السيطرة على الحدث ولو لحظة، وهو ينتقل بنا من حادثة إلى أخرى في تسلسل مقنع، فيقف الحاج أسعد في مطلع القافلة، ويقف مصطفى في ذيلها، من الشخوص موزعة توزيعا دقيقا على المسرح، بعضها قريب من المحور، وبعضها بعيد، ولكنها تشترك جميعا في سمات معينة الصدق والطبيعة والوضوح".[٧]

ومن الملاحظ أن السحار قد نقل أحداث هذه الرواية بأسلوب النثر والسهولة والسلاسة غير النظم التقليدي حيث لا غموض فيه ولا تكلف وقد ترك التعقيدات اللفظية والمعنوية. واستعمل الجمل السهلة والبسيطة والقريبة من الفهم. وكان يريد بها توصيل عمله الفني لكافة المستويات ويظهر هذا واضحا في العبارة التالية "ارتفعت الشمس في كبد السماء، ثم مالت إلى الغرب قليلا فما يبقى على أذان العصر إلاّ ساعة".[٨]

وكذلك نجد السحار يستعمل الحوار بين شخصياته ما يمكن أن يدور على ألسنتهم في الحياة الواقعية دون اختيار وتهذيب هي لغة سليمة بسيطة، فيها روح العامية ولكنها عربية اللفظ يفهمها كل اللذين يقرؤونها "وجاء الليل وفتح

السلاملك لاستقبال أصحاب حسن، وكانوا جميعا من رقيقي الحال؛ أحدهم تاجر دخان قمئ الجسم، أبيض الشعر، يتدلى شاربه على فمه، يقرأ كتب السحر، مارس السيماء وحاول أن يتخرج الذهب من النحاس، يتكلم في هدوء ويدل مظهره على أنه رجل محوط بالأسرار. والآخر خادم زواية، ضعيف البصر، ذرب اللسان، لا ينجو من لسانه أحد حتى نفسه، كان في شبابه خياطا، وكان شيطانا ... الخ"[٩].

وبعد هذه الدراسة يمكن لنا القول إنّ عبد الحميد جودة السحار نجح في تقديم لنا العادات والأطوار القديمة والحديثة في الأجيال الثلاثة تقديما صادقا حيث لا نحس أي مفارقة بين البدء والنهاية، فهذه الأحداث التي مرّبها أفراد هذه الأجيال الثلاثة والتي قدّمهم المؤلف بكل شذوذ ومفارقة يمكن أن تمرّ في حياة كل قارئ بسب أسرة كبيرة واجماع أهل وأحباب.[١٠]

وخلاصة القول صوّر عبد الحميد جودة السحار حياة أسرة مصرية من خلال ثلاثة أجيال بحيث أنها تقدم إلينا الأحداث السياسية والاجتماعية بطريقة طبيعية مقنعة، وتصور صورة حية صادقة للرسوم والعاداة الاجتماعية المسيطرة على الحياة المصرية آنذاك.[١١]

الهوامش:

١. د. حمدي سكوت: قاموس الأدب العربي الحديث، ص: ٣١٦
٢. د. صفوت يوسف الزيد: التيار الإسلامي في قصص عبد الحميد جودة السحار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٥٧م، ص:١٤٣
٣. محمد جبريل: السحار رحلته إلى السيرة النبوية، مكتبة مصر، ١٩٩٤م ص: ١٥-١٧
٤. عبد الحميد حودة السحار: رواية "في قافلة الزمان"، مكتبة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٧م. ص: ٦-٧

٥. نفس المصدر، ص: ١٣٣-١٣٤

٦. نفس المصدر، ص: ٣٨٠

٧. أحمد إبراهيم الهواري: مصادر نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر، دار المعارف، القاهرة.١٩٧٩، ص:٢٠٤

٨. رواية "في قافلة الزمان"

٩. نفس المصدر، ص: ٢٦٠ وما بعدها

١٠. فاطمة الزهراء الموافي: القصة عند عبد الحميد جودة السحار-نقد وتحليل، مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٩٨١م. ص: ٦٣-٦٧

١١. Hamdi Sakkut: the Egyptian Novel and its Main trends, Daral-Maaref, Cairo, 1971, P. 112

* * *